خـــاتمـة

لقـد حاولـت فـي صـفحات ذلـك البحـث رصـد الصـراعات المذهبيـة والإجتماعيـة فـي خراسـان مـن بدايـة الحكـم السـامانى إلـى ظهـور السـلاجقة، واستقصـاء أسـباب تلـك الصـراعات، وإن وُجِـد قصـور فـي بعـض النقـاط، فقـد حاولـت بقـدر الإمكـان الإفـادة مـن المصـادر والمراجـع لاسـكتناه أسـباب ودوافـع تلـك الصـراعات سـواء المذهبيـة أو الاجتماعيـة، وأيضـاً قصـدت أن أعـول علـى مـنهج غيـر تقليـدي – بالنسـبة لرصـد أسـباب الصـراع المـذهبي – المتمثـل فـي الماديـة الجدليـة التـي تسـتقرأ الواقـع، ومـن ثـم اسـتبيان واستيضـاح النتـائج، وذلـك بعيـداً عـن التفسـير القـائم علـى العصـبية المذهبيـة أو الناحيـة الإيديولوجيـة الصـرفة، ممـا أدى إلـى تكشـف مـا يسـمى بالمسـكوت عنـه ، وقـد توصـلت إلـى عدة نتائج هامة وهى :

- أن محاولـة رصـد البنـاء الاجتمـاعي بطبقاتـه وشـرائحه كانـت هـي المؤشـر لمعرفـة الأسـباب الحقيقيـة للصـراعات المذهبيـة خـلال فتـرة محـل الدراسـة، بـل مؤشـراً للأحـداث السياسـية التـي أثـرت أيضـاً علـى الجانـب المذهبي.

- أقصـى مراحـل التعصـب المـذهبي كانـت فـي تلـك الفتـرة وذلـك منـذ القـرن الثالـث الهجـري وحتـى القـرن الخـامس الهجـري، ولاسـيما منـذ قيـام الـدويلات السـنية فـي المشـرق الإسـلامي سـواء السـامانية أو الغزنويـة أوالسـلجوقية، فضـلاً عـن الكيانـات الشـيعية كالبويهيـة والزيديـة بالإضـافة إلـى الكيـان الشـيعي الكبيـر المتمثل في الخلافة الفاطمية الإسماعيلية.

- أن الصـراعات المذهبيـة كانـت نتيجـة حتميـة لمـا وصـلت إليـه الأوضـاع الاجتماعيـة أنـذلك، فالبنيـة الاجتماعيـة المهترئـة سـمحت بتكـريس الإقطـاع منـذ سيطرة العنصر البدوي التركي العسكري على مقاليد الخلافة العباسية.

- كـان قيـام الـدويلات شـبه المسـتقلة فـي المشـرق الإسـلامي، دلـيلاً علـى مـدى التفسـخ السياسـي الموجـود، الأمـر الـذي سـاعد علـى انتشـار الفوضـى سـواء

سياسية أو مذهبية، إلا أن وضع الفرق المذاهب اتخذت رسماً بيانياً على فترات مختلفة فمثلاً يعتبر المذهب السني الحنفي هو الذي ساد على مدى الفترات الثلاث السامانى – الغزنوى- السلجوقي، والذي يعتبر هو مذهب الخلافة العباسية، بينما المذهب الشيعي فتراوح بين المد والجذر ففي عصر السامانيين كان نشاطهم وصل من السرية إلى العلنية التي تمثلت في حركة الحسين بن على المروروزى الذي وصل إلى بلاط الأمير نصر بن أحمد السامانى بل واستطاع جذب العديد من حاشية بلاطه إلى المذهب الشيعي الإسماعيلى، والأكثر من ذلك أنه استمال الأمير نفسه إلى المذهب الإسماعيلى.

أما بالنسبة للنشاط الشيعي في عصر الغزنويين فقد عادة مرة أخرى إلى التنظيمات السرية نظراً لضراوة القمع الغزنوى، ولاسيما بعد وصول السلطان محمود الغزنوى إلى سدة الحكم، فقد نكل بكل ما هو شيعي إسماعيلى أو زيدى حتى خارج خراسان فقد قتل وصلب الشيعة في الهند وغزنة، وبالمثل فعل مع القرامطة أيضاً، ومن بعده ابنه مسعود ظل محارباً للمذهب الشيعي محاولاً القضاء عليه.

ولم يختلف الأمر أيضاً بالنسبة للشيعة في عصر السلاجقة الأتراك الذين كانوا أشد النظم ضراوة في قمع كل ما هو معارض وعلى الأخص الشيعة الإسماعيلية، أى تواصل نشاط الشيعة لكن أيضاً في سرية إلى أن أعلن الحسن الصباح فيما بعد في فترة متأخرة عن فرقة الحشاشين الذين استطاعوا تكوين فرقة سياسية ثورية كبرى.

كذلك المعتزلة فقد خفت نشاطهم السياسي على مرور الفترات الثلاث، إلا أنهم كانوا معضدين ومساعدين في نشاط الشيعة الزيدية التي استطاعت تكوين كيان كبير في طبرستان عام ٢٥٠هـ / ٨٦٤م تحت إمامة الحسن بن زيد، وقد وضحنا سلفاً مدى الارتباط التاريخي بين الزيدية والمعتزلة، وأن المعتزلة هم مؤسسو الخلفية الفكرية للزيدية والمساعدون لهم في الثورات،

وبالمثل كانوا سبباً في قيام دولة شيعية زيدية أخرى وهى الدولة البويهية عام ٣٣٤هـ / ٩٤٥م، إلا أن السلطة الغزنوية والسلجوقية استطاعت تحجيم وقمع الفكر المعتزلى في خراسان.

- وضحت الدراسة أيضاً أن الصراع المذهبي لم يكن فقط بين المذاهب والفرق المختلفة بل بين أصحاب المذهب الواحد، وتجلى ذلك في الصراع بين المذهب السني الحنفي والشافعي، وقد ظلا الطرفان في تناحر و مناوشات في خراسان على مدى الفترات لمحاولة السيطرة فكرياً، إلى أن وصلت مداها في العصر السلجوقي بعد أن قام الوزير السلجوقي عميد الملك الكندرى بلعن الأشعرية الشافعية على المنابر، وأثرت تلك المحنة على العلماء والفقهاء الشافعية في المشرق،واتخذ هذا الصراع لبوساً دينياً مذهبياً بين الحنفية والشافعية، لكننا أبرزنا أن الصراع ذات مضمون سياسي بين الوزير السلجوقي عميد الملك الكندرى والشافعية وممثلها الإمام أبو سهل الموفق الذى كان شخصية مرموقة في المجتمع الخراساني فخشي عميد الملك الكندرى أن يثب الموفق إلى كرسي الوزارة، فضلاً عن الخلفية الاجتماعية لأبى سهل الموفق الذي كان من ملاك الضياع والأراضي الزراعية مما أغرى السلطة السلجوقية في الدخول ومصادرة أموال شريحة الفقهاء كبار الملاك .

- كذلك أبرزت الدراسة نوعاً مختلفاً من الصراع المذهبي وهو صراع الكيانات والدول بدلاً من صراع سلطة ضد فرقة، وقد تمثل هذا الصراع في الدولة الزيدية ضد السامانية وأيضاً الدولة البويهية ضد الغزنوية، فضلاً عن مقارعة الخلافة الفاطمية الإسماعيلية الخلافة العباسية وحراسها في المشرق الإسلامي، وقد وضح بشدة مدى اشتعال الصراع في حروب الدولة السامانية ضد الدولة الزيدية في طبرستان وجرجان والذى أسفر عن نجاح الدعوة الزيدية في نشر مذهبها في المدن المجاورة لها، هذا فضلاً عن المكاسب الاقتصادية المتمثلة في طرق التجارة الداخلية ولاسيما تجارة الحرير

والحبوب، وأيضاً صراع محمود الغزنوى ضد البويهيين والذي انتهى باستيلائه على أملاك مجد الدولة البويهى وهو صراع أيضاً هدفه السيطرة على طرق التجارة الخارجية.

- وقد أفرز الواقع الاجتماعي عن أهم وأخطر شيء وهو انخراط شرائح طبقة العامة من حرفيين وعمال وفلاحين في ثورات المعارضة متخذين لباساً دينياً ومذهبياً، وهناك أيضاً منضمون رافعون لواء الثورة ضد الظلم والقهر حتى لو بدون غطاء أيديولوجي، وذلك قناعة منهم بأن ثورات الشيعة متبنية لقضية العدل الاجتماعي، وظهر ذلك جلياً في ثورة الزيديين بطبرستان بسبب استيلاء عامل طبرستان على أراضى وضياع خصبة أهداها له الخليفة العباسي مكافأة له على قتل محمد بن القاسم العلوي، والدليل على ضآلة التفسير المذهبي أو العصبية المذهبي بجوار التفسير المادي أن الصبغة الاجتماعية لثورات الشيعة كانت بفضل اشتراك شرائح العامة فيها كما أبرزنا.

- أثبتت الدراسة كذلك ارتباط فقهاء السنة عامة بالسلطة، دلالة ذلك في عصري الدولة الغزنوية والسلجوقية حيث كانت أسرة التبانية الحنفية هي المرجع للسلطة الغزنوية، لتبرير الجور و الظلم وإباحة دم المعارضين وسفك دم المفكرين من الشيعة والمعتزلة، وأيضاً السلطة السلجوقية وإنشاء المدارس النظامية التي كرست الفكر الأشعري لخدمة السلطة، وهذا فضلاً عن ارتباط الفقهاء بحيازة الثروة سواء ضياع أو اقطاعات أو أموال وذلك مقابل فتاويهم وأحكامهم تخدم السلطة السياسية، وذلك ساعد على تأجج الثورات ضدهم متخذة لبوساً مذهبياً.

- رعاية السلطة وحمايتها لبعض الفرق للقضاء على فرق معارضة أخرى وذلك بما يخدم مصالحها، وبرز ذلك بشدة في رعاية السلطان محمود الغزنوى لفرقة الكرامية ورئيسهم محمد بن محمشاد وذلك لكسر شوكة المعارضين من الشيعة، وبالفعل كانوا ناجحين في ذلك، ودلالة ذلك دور

زعيم الكرامية في إعدام التاهرتى رسول الخليفة الفاطمي، كذلك كانت الكرامية أداة من أدوات القمع الغزنوى ومن ضمن ذلك عقد المناظرات بين الكرامية والفرق المعارضة الأخرى من أجل تبرير قتل وإعدام المعارضين، إلا أن هذه الرعاية لم تلبث أن انتهت وأيضاً لأسباب فحواها منطوٍ على ناحية اجتماعية – اقتصادية لاسيما أن فقهاء السنة بدأوا يدخلون في صراع ضد الكرامية وهذه المناوشات تطورت لدرجة أن الفقهاء وشوا بالكرامية عند السلطان محمود الغزنوى بأنهم مجسمون وأعداء الدين، فاستجاب لهم السلطان محمود الغزنوى وحاكمهم وحبس زعيمهم، أما عن الأسباب الحقيقية أن الكرامية معظمهم من شرائح طبقة العامة فأغلبيتهم من الحرفيين والعمال الذين انخرطوا في هذه الفرقة خصوصاً أنهم اكتسبوا نفوذاً سياسياً منذ رعاية السلطان محمود الغزنوى لهم، ومنذ ذلك الوقت دخلوا في صراع مع فقهاء السنة الذين كانوا من كبار ملاك الأراضي وحائزي الثروة، ومحاولة الكراميين في الحصول على مكسب مادي ورغبة في حياة كريمة دخلوا في صراع مع شريحة الفقهاء الملاك للثروة، أى صراع بين طبقة العامة والطبقة الوسطى، فلم يجد السلطان محمود الغزنوى مفراً إلا أن ساند الطبقة التي تحميه وتتفق مصالحه معها وهم الفقهاء الذين يبررون ظلمه وجوره ممثلة في الآية الكريمة : " وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم".

- هذا بدوره كشف لنا عن الدور المحوري والخطير للطبقة الوسطى (البورجوازية) التي تباين دورها وموقعها من مساندة طبقة العامة، ففي منتصف القرن الرابع الهجري أنجزت البورجوازية صحوة هائلة بفضل نشاط كبار التجار والحرفيين الذين هم في نفس الوقت بعضهم منتمون إلى المعتزلة والشيعة الزيديين، وقد أفضت هذه الصحوة إلى قيام كيان شيعي كبير وهو الدولة البويهية التي قامت في عقر دار الخلافة العباسية بغداد، وأظهرت العدالة الاجتماعية المتمثلة في توزيع الأراضي الموروثة عن الأتراك البدو والأمراء على الجند بالتساوي لكن ليس كإقطاع رقبة لكن على

سبيل الانتفاع، ومن ثم ازدهرت الزراعة، وعلى الصعيد الفكري والثقافي وصلت إلى أوج عظمتها والشيعة كما أوضحنا هم رعاة وحماة الفكر الفلسفي وتمثل ذلك في ظهور علماء وأدباء وفلاسفة أمثال الصاحب بن عباد وزير عضد الدولة البويهى، وأيضاً ابن العميد ورعاية البويهيين للفلاسفة أمثال ابن سينا الذي وجد كامل الحرية في البلاط البويهى بعدما هرب من نيران السلطان الغزنوية، كذلك النشاط الفاطمى على جميع الأصعدة سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية وظاهرة التسامح الديني والعدالة الاجتماعية، فقد كانت هناك مدارس تدريس المذاهب السنية في عهد الفاطميين، بل تولى المناصب الكبيرة أديان أخرى كاليهود والنصارى الذين تولوا الوزارة في العهد الفاطمي.

لكن لم يتم القضاء على الإقطاع قضاء مبرماً، نظراً لهشاشة الطبقة البورجوازية وعدم استمرارية إنجازها نتيجة ميلها للسلطة للكسب السياسي وبالتالي تخلوا عن دورهم التاريخي بمساعدة العوام، مما أثر سلبياً على ثورات وحركات المعارضين التي اتسمت بالفوضوية وسهولة قمعها من قبل السلطة، حيث كان لنمط الإنتاج السائد دور مهم بعدما تحول النشاط التجاري إلى زراعي ومن ثم امتلاك الأراضي ثم الإقطاع، فتحول بعض صغار الملاك وصغار التجار إلى حرفيين وعمال فانخرطوا في سلك الثورة، وتغير نمط الإنتاج بعد وصول الأتراك واستقلالهم بكيانات سياسية في المشرق، ومن ثم خربوا كل شيء فتكرس الإقطاع العسكري و أهدروا الأراضي الزراعية في يد الجند الأتراك، فضلاً عن فقدان الخلافة العباسية السيطرة على طرق التجارة الخارجية.

- بالنسبة للمتصوفة لم يختلف وضعهم بالنسبة للسلطات السياسية من حيث رعايتهم وتدعيمهم، أما بالنسبة للتصوف نفسه كأفكار وبالطبع تغيرت وفقاً للوضع السياسي – الاقتصادي إلى الأسوأ فقد كانت أفضل حالات التصوف منذ أن كان يدعو إلى الزهد والتنسك بل والتثوير وبالطبع الحلاج

كان نموذجاً صارخاً ؛ نظراً لتدعيمه للقرامطة وهى التهمة الحقيقية التي أعدم بها عام ٣٠٩هـ، وكذلك فكرة وحدة الوجود والاتحاد والحلول، فكل هذه الأفكار نتاج الوضعية السياسية – الاجتماعية والتي أدت أيضاً إلى فتح الطريق إلى صبغ التصوف بالفلسفة، لكن بعد تكريس الإقطاع العسكري تحول التصوف من الزهد والتنسك إلى التهويمية والانسحابية والتواكل مما أدى إلى التطرف أحياناً والقول بسقوط الفرائض والتكاليف، فكل هذا من مصلحة السلطة السياسية ومن ثم كان ذلك دافعاً قوياً جداً لبناء الخاتقاوات والتكايا والزوايا والأربطة ولجوء السلطة إلى الإسراف في المنشآت الدينية ؛ لإلهاء العامة وانخراطهم في التصوف بعيداً عن حركات المعارضة ومهاجمة السلطة.

- بالرغم من أن التطرف سمة عامة وقاسم مشترك بين سائر المذاهب والفرق، إلا أنه كانت هناك فرق معتدلة في أفكارها ودورها قوى في تغيير الواقع الاجتماعي مثل الزيدية وهو مذهب عضده الإمام أبو حنيفة والإمام مالك وهو أقرب إلى أهل السنة كذلك مذهب الخوارج الإباضية أصحاب الفكر الحر وجمهوريي الإسلام كما أطلق عليهم، كذا مذهب الإثنا عشرية الذي فتح باب الاجتهاد واسعاً في تطوير أفكاره السياسية وإن اتبعوا التقية، والإسماعيلية الذين لفظوا التعصب وطبقوا عملياً مبدأ التسامح في الدولة الفاطمية، وتمخض عنها القرامطة أصحاب أول تجربة اشتراكية في التاريخ الإسلامي الذين أسسوا كياناً قوياً جداً أرسى مبادئ العدل الاجتماعي في أبهى وأجلى صوره في الشام والبحرين والأحساء.

نهاية نقول بأنه من البديهي أن يفرز نمط الإقطاع العسكري أبنيته الحضارية العلوية، فأثرت على البناء التحتي للمجتمع الإسلامي فأفضى إلى الثورات والحركات المعارضة، وأدى إلى صراعات مذهبية، فضلاً عن أنها مهدت لرواج النزعات الغيبية والاتجاهات النصية على حساب التيارات الليبرالية المنتجة للحضارة.